إهداء
إلى أستاذنا الجليل الأستاذ
الدكتور محمد مهر عفيفي
بالتوفيق
لك
٢٨/٧/١٩٩٦م

الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل

وعلاقتها بالمسلمين

الدكتورة

ليلى عبد الجواد إسماعيل

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعي
١٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) من أهم فترات التاريخ البيزنطى وترجع أهمية هذا العصر الى ما اتسم به من سمات هامة اكسبت الدولة البيزنطية الطابع البيزنطى ، بل ويعتبر عصر هرقل البداية الحقيقية للتاريخ البيزنطى بعد فترة الانتقال بين التاريخ الرومانى القديم والتاريخ البيزنطى الوسيط والتى استمرت نحو ثلاثة قرون •

اعتلى هرقل العرش والامبراطورية على شفا الانهيار ، تحيط بها الاخطار من كل جانب وتحاك بها المؤامرات والدسائس ، وتعانى من اقتصاد منهار وحركات تمرد وانفصال • وعلى الرغم من ذلك كله ، وعلى الرغم من المتاعب التى واجهها هرقل فى بداية حكمه وعند اعتلائه العرش ، الا أن عصر هرقل شهد تطورات وتحولات هامة فى شتى المجالات سواء السياسى منها أم الاقتصادى أم الدينى •

فعلى الصعيد السياسى بعث هرقل نظام وراثة العرش من جديد ، وبدلا من أن يجعل له وريثا واحدا وشريكا واحد فى الحكم ، أصبح له وريثان وشريكان فى الحكم ، كما شهد عصر الامبراطور هرقل تنظيما اداريا وعسكريا جديدا فى أقاليم الدولة البيزنطية وولاياتها ، قام على أساس الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية فى يد قائد عسكرى واحد فى كل ولاية عرف باسم « الاستراتيجوس » وتحولت الولايات بذلك الى ثغور أو بنود Themes وكان لهذا النظام أكبر الاثر فى اعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه من قوة وعظمة ، وجعلها أشد تماسكا وأكثر صلابة عما كانت عليه ، اذ بفضل هذا النظام أصبحت الامبراطورية قادرة على مواجهة اعدائها من الفرس والسلاف (الصقالبة) والعرب المسلمين ، فقد كفل لها هذا النظام جيشا قادرا على الدفاع عنها بعد أن كانت تعتمد على المرتزقة الاجانب الذين ارتبط وجودهم بالمال وبذلك خف عن الخزانة الامبراطورية عبء ثقيل •

اتخذ الامبراطور هرقل خطوات ايجابية لاصلاح اقتصاد الامبراطورية المنهار ، فالى جانب الحد من عدد الموظفين ورجال الدين فى كنيسة القديسة صوفيا ، واصدار عملات جديدة وفرض ضريبة على الخبز المجانى ، نجده يتوسع فى زراعة القمح ، ويعيد تنظيم الطوائف المهنية والتجارية ، ويهتم بصناعة الحرير ، هذا فضلا عن التحول الذى حدث فى التجارة الخارجية فى عهده • ولهذا يعد هرقل بحق مسئولا عن التغييرات الهامة التى حدثت فى الاقتصاد البيزنطى •

كما شهد عصر الامبراطور هرقل احياء للحضارة اليونانية فى الدولة البيزنطية ، فبعد أن كانت اللغة اللاتينية هى لغة الادارة والقانون والتعليم والجيش ، أصبحت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للدولة وتخلى الامبراطور عن الالقاب اللاتينية مثل لقب أغسطس وقيصر ، واستخدم بدلا منها لقب « باسيليوس » • ولم يكن التحول الى الطابع اليونانى قاصرا على اللغة فحسب ، بل امتد الى التشريع والكنيسة والعملات والجيش وشتى مجالات الحياة فى الامبراطورية •

واتسم عصر هرقل بحدوث تحول جديد أيضا فى السياسة الدينية للدولة البيزنطية اذ سعى الامبراطور هرقل بمعاونة سرجيوس بطريرك القسطنطينية التى تحقيق الاتحاد الدينى بين المونوفيزتيين فى الاقاليم الشرقية التابعة للامبراطور وبين اتباع المذهب الارثوذكسى السائد فى كنيسة القسطنطينية وأسفر سعيهما عن ظهور مذهب جديد هو مذهب الارادة الواحدة Monotheletism وبذل كل من هرقل وسرجيوس جهودا مضنية فى سبيل نشر هذا المذهب • وكذلك حسم هرقل مشكلة أخرى واجهته فى الاقاليم الشرقية الى جانب مشكلة المونوفيزتية وهى مشكلة اليهود وذلك بما اتخذه من اجراءات جادة ضدهم •

وشهد عصر الامبراطور هرقل حربا سجالا بين الدولة البيزنطية والفرس ، ففى الوقت الذى اعتلى فيه هرقل العرش كان الفرس قد استولوا على عدد من مدن الشام ، وفى السنوات الأولى من حكمه استولوا

على باقى مدن الشام بل وعلى مصر وخلقدونية ، وهددوا العاصمة البيزنطية القسطنطينية ذاتها • وسارع الامبراطور هرقل باتخاذ الاستعدادات اللازمة لحربه مع الفرس ، فأعاد تنظيم الجيش ، وتولى قيادته بنفسه ، وظل يقاتل الفرس طيلة ست سنوات خرج بعدها منتصرا عليهم ، واسترد منهم كل ما انتزعوه من أراضى الامبراطورية •

وكان على هرقل أن يواجه خطرا آخر وهو خطر السلاف والآفار الذين سعوا الى التوغل فى الاراضى البيزنطية وخاصة فى شبه جزيرة البلقان ، وظلوا يشنون غاراتهم على أراضى الامبراطورية ، وعلى الرغم من جهود الامبراطور لشرائهم بالمال الا أنهم حاصروا القسطنطينية نفسها منتهزين فرصة انشغال الامبراطور بحربه مع الفرس ، غير أن حصارهم باء بالفشل • واحتك هرقل بشعوب سلافية اخرى هى الصرب والكروات،غير أنه نظرا لضغط الآفار عليهم ، فقد لجأوا الى هرقل يطلبون منه الحماية والمساعدة ضدهم ، وكان أن دخل هؤلاء فى طاعة الدولة البيزنطية ودانوا لها بالسيادة وتلقوا التعميد •

وواكب عصر هرقل ظهور الاسلام ، وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة حيث وضع أسس وقواعد الدولة العربية الاسلامية وأرسل عليه الصلاة والسلام كتبه وسفراءه الى هرقل والمقوقس ، عامله على مصر ، وكان طبيعيا أن تكون هناك ثمة احتكاكات بين الجانبين ، بدأت تلك الاحتكاكات فى عهد الرسول الكريم فى مؤته ثم تبوك ، ثم تطلع المسلمون الى فتح بلاد الشام ، ونجحوا فى ذلك كما نجحوا فى فتح مصر • كل ذلك أضفى على عصر الامبراطور هرقل أهمية خاصة •

دراسة تحليلية لأهم المصادر

هناك مجموعات من المصادر التاريخية لاغنى عنها للباحث فى تاريخ الدولة البيزنطية بصفة عامة ، وفى تاريخ عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) بصفة خاصة وتأتى مجموعة كتاب التاريخ البيزنطى Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (١) فى طليعة هذه المجموعات.

ويأتى على رأس هؤلاء الكتاب البيزنطيين أهمية بالنسبة للفترة موضوع الدراسة (٦١٠—٦٤١م) جورج البسيدى Georgius Pisida (٢). شماس كنيسة آيا صوفيا فى عهد البطريرك سرجيوس (٦١٠—٦٣٩م) بطريرك القسطنطينية . عاش جورج البسيدى فى عصر الامبراطور هرقل، وكان شاعرا مشهورا ، كتب اشعار تاريخية عديدة ، وصاحب هرقل فى حملاته ضد الفرس فى الفترة مابين عامى (٦٢٢ — ٦٢٣ م) ووصف بدقة حملات الامبراطور ضد كل من الفرس والآفار . وترك جورج البسيدى لنا عدة أعمال تاريخية هى : أولا : حملة هرقل ضد الفرس Expeditio Persica (٣) وهى عبارة عن تقرير مفصل عن حملة هرقل ضد الفرس فى عام ٦٢٢ — ٦٢٣ م ، كتبه جورج البسيدى عند عودته من تلك الحملة .

---

(١) تحتوى هذه المجموعة على كتابات المؤرخين البيزنطيين أمثال بروكوبيوس ، وثيوفانيس ، وميخائيل بسللوس وقيدرونوس ، وزانوراس ، وآنا كومنين ، وجريجوراس ، وباخمير وغيرهم كثيرين . ولهذه المجموعة طبعات مختلفة منها طبعة بون (١٨٢٨ — ١٨٩٧ م) وهى تحتوى على نص باليونانية لكل مؤرخ مع ترجمة باللاتينية للنص نفسه . وهى الطبعة التى اعتمدت عليها الدراسة وهناك طبعة أخرى هى طبعة مين Migne وقد نشرها ضمن مجموعة اعمال الآباء اليونانيين . ومن الجدير بالذكر أن هناك ترجمات لبعض كتابات المؤرخين الذين كتبوا فى هذه المجموعة الى اللغات الأوربية الحديثة .

(٢) ينسب جورج البسيدى الى أقليم بسيدا Pisida الذى يقع فى جنوب آسيا الصغرى . انظر :

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 280.

(٣) Georgius Pisida, De Expeditione Persica, in C.S.H.B., Bonnae (1837).

ونظم جورج البسيدى أيضا شعرا فى هجوم الآفار على القسطنطينية عام ٦٢٦ م بعنوان « حرب الآفار Bellum Avaricum » (١) وأنشد جورج قصيدته هذه أمام البطريرك سرجيوس Sergius فى عام ٦٢٧م، وركز فيها على دور العذراء كعامل أساسى فى تحقيق النصر ، وامتدح فيها الامبراطور هرقل ، وذكر الدور الفعال الذى قام به رغم غيابه عن العاصمة وقت الهجوم عليها من قبل الآفار ، وامتدح كذلك دور البطريرك سرجيوس فى الدفاع عن المدينة . ويقدم جورج فى تلك القصيدة بعض التفاصيل عن القتال البرى والبحرى مع الآفار ، وهزيمة خاقان الآفار وما ترتب على تلك الهزيمة من نتائج (٢) .

كما كتب جورج البسيدى كذلك شعرا فى مدح الامبراطور هرقل بعنوان Heracliados (٣) وذلك بمناسبة انتصار هرقل على الفرس، وتحدث فيه عن جانب من حروب هرقل ضد الفرس وهجوم السلاف والآفار على القسطنطينية فى عام ٦٢٦ م بالاشتراك مع الفرس ، وتحدث فيه كذلك عن مصرع كسرى الثانى ملك الفرس سنة ٦٢٨ م .

والف جورج البسيدى أيضا قصيدة شعرية دينية بعنوان « خلق الكون فى ستة أيام Hexaemeron » (٤) وهى عبارة عن نوع من شعر الفلسفة اللاهوتية عن الخلق والكون ، مع بعض لمحات عن الحوادث المعاصرة ، وفى هذه القصيدة يرى جورج البسيدى أن هناك ثمة علاقة — مع الفارق — بين الايام الستة التى خلق الله فيها العالم ثم استراح فى اليوم السابع ، وبين سنوات الحرب الست التى خاضها

---

(١) Bellum Avaricum, in C.S H.B., Bonnae (1837)

(٢) انظر الفصل الخامس

(٣) Heracliados, in C.S.H.B., Bonnae (1837)

(٤) تمت ترجمة هذا العمل الى اللغة الروسية فى القرن الرابع عشر انظر :

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I. P. 280.